الأوضاع الاجتماعية والثقافية لدمشق بين سنتي 1650 – 1750م

the social and cultural conditions of Damascus between the years 1650-1750

ابراهيم بحيات، جامعة ابن طفيل المغرب. bouhayatibrahim@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020/11/01 تاريخ القبول: 2021/07/05 تاريخ النشر:2021/08/07

الملخص:

تلقي هذه المقالة نظرة عامة على الأوضاع الاجتماعية والثقافية لدمشق بين سنتي 1650 – 1750"، وبذلك فهي تأتي ضمن مجالات اهتمامنا بكل من المشرق العربي والمغرب الكبير بما يشملانه من روابط ثقافية واجتماعية وسياسية متشابهة في كثير من الأحيان، وقد حاولنا في هذه المقالة إبراز جزء من هذا التاريخ، الذي بدا لنا أنه ما يزال في حاجة إلى التنقيب والدراسة خصوصا خلال الفترة المحددة لهذه المساهمة، وهي فترة وسمت عموما بتطورات جذرية مست مختلف مناحي الحياة بالمجال المدروس، وقد ركزنا على أوضاع المجتمع بدمشق الشام ونمط عيشهم، وعلى النواحي الفكرية، وكذا نظامها الإداري باعتبارها إيالة تابعة للدولة العثمانية، وخلصنا في نهاية هذه المقالة إلى مدى تأثر مختلف الانتاجات على المستويين الفكري والقافي، خصوصا وأن دمشق كانت تعتبر مركزا للعلم والعلماء.

كلمات مفتاحية: دمشق؛ المشرق العربي ؛ المغرب الكبير ؛ الاجتماع.

Abstract:

This article sheds light on a general overview of the social and cultural conditions of Damascus between the years 1650 and 1750. Consequently, it comes within the areas of our interest in both the Arab East and the Morocco, which has similar cultural, social and political ties. Therefore, we tried in this article to highlight a part of this date. This seemed to us that it was still in need of exploration and study, especially during the specified period for this contribution. Generally speaking, this period was marked by radical developments that affected various aspects of life .Moreover; we gave importance to the conditions of the community in Damascus and their method of life. Most importantly, we focused on the intellectual aspects, as well as its administrative system .For example, Ayala belongs to the Ottoman Empire. To conclude, this article deals with the extent that the various productions were affected on the intellectual and cultural levels.

Keywords: Damascus; The Arab East; The Maghreb; the meeting; the culture.

مقدمة:

حظيت بلاد الشام عموما ودمشق خصوصا، بأعمال ودراسات تاريخية نوعية لا يمكن إنكارها من قبيل: الدراسة التي أنجزتها الباحثة ايرينا سميليا نسكايا، تحت عنوان البنى الاقتصادية والاجتماعية في المشرق العربي على مشارف العصر الحديث، ودراسة شيلشر ليندا، دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ودراسة لوقا اسكندر، الحركة الأدبية في دمشق 1800- 1918، والعمل الذي أنجزه المنجد صلاح الدين، تحت عنوان ولاة دمشق في العهد العثماني، سلطت الضوء على جملة من أشكال الحياة الثقافية والاجتماعية بدمشق زمن أفول القوة العثمانية.

لكن ذلك لم يحل دو ن اهتمامنا بالفترة الممتدة من أواسط القرن السابع عشر إلى أواسط القرن الثامن عشر بحكم اشتغالنا على مخطوط المتصوف **البكري الصديقي الخلوتي** الذي عاصر هذه المرحلة، وناقش في مخطوطاته الغزيرة جملة من القضايا الفكرية والاجتماعية بالشام، والتي لا تختلف كثيرا عن نظيرتها بالمغرب الكبير، ليتبين لنا ثراء التراث التاريخي والفكري للمرحلة، باعتبارها فترة جد مهمة من التاريخ الإسلامي عموما ومنطقة الشام على وجه الخصوص، حيث تغيرت موازين القوى لصالح الدول الأوربية على حساب الإمبراطورية العثمانية، وهو ما ألقى بضلاله على الأوضاع الاجتماعية والثقافية بظهور زعامات وأسر محلية تعاظمت قوتها في إطار الصراع على السلطة، وتناسلت الطوائف المذهبية والطرق الصوفية التي حاول البعض استغلال أفكارها خدمة لأجندات سياسية، ما طرح أسئلة وقضايا جديدة لا يزال العقل العربي يبحث لها عن إجابات إلى اليوم، أو بالأحرى لم يستوعب التطور الذي وصلت إليه الدول الغربية عموما.

وفي هذا السياق يأتي إنجازنا لهذه المساهمة، بغية إبراز كثير من المعارف الفكرية والتاريخية، المتعلقة بدول ومماليك العالم الإسلامي قاطبة، خدمة للمعرفة العلمية، التي تظل رغم ما توصلنا إليه نسبية، وسننكب في هذه المساهمة على تقديم بعض الجوانب من التاريخ الاجتماعي والثقافي لدمشق الشام، باعتبارها كانت نبراسا ثقافيا في المنطقة، استنارت من علومها عدة شعوب، إلى أن وصل الحال بالعثمانيين إلى تسميتها بمجموعة من الصفات الدينية، منها على سبيل المثال "شام شريف" و"بستان الكعبة" وغير ذلك من التسميات[1]. وعليه، نرى أنه لا بد من الإجابة على مجموعة من الأسئلة في هذه المساهمة، من قبيل:

- ما طبيعة الأوضاع التي سادت في بلاد الشام عموما ودمشق خصوصا؟
- وكيف كانت أحوال البلاد من الناحية الفكرية في المرحلة المدروسة؟
- وما هي نتائج الاضطرابات التي عرفتها دمشق الشام؟
- كيف كان نظام الإيالات العثمانية؟
- ومن هم أشهر ولاة دمشق في المرحلة المدروسة؟
- وهل تأثر الإنتاج الثقافي والفكري لدمشق باعتبارها عاصمة من عواصم العلم؟ وما نتائج ذلك؟.

1 إطلالة عن الأوضاع العامة للمجال المدروس

تجمع الكثير من المصادر التاريخية على أن قيام الدولة العثمانية جاء على حساب ما تبقى من الدولة البيزنطية، ولذلك تأثر نظامها بأساليب النظام البيزنطي، كما أن العثمانيين هم الذين استطاعوا أن يجمعوا معظم المشرق الإسلامي

تحت حكمهم في حقبة تاريخية طويلة، "**تعتبر الدولة العثمانية الوارث بحق للإمبراطورية الرومانية**"[2]، ويبدو أنه لما اشتد عودها فكرت في تطوير قدراتها عن طريق تقوية تنظيماتها المجالية سواء على المستوى السياسي، أو الاقتصادي والاجتماعي والفكري باعتبارهم من الدعامات الأساسية لنهوض المجتمعات.

واتجهت سياسة الباب العالي بذلك إلى التوسع على حساب الجيران، درءا لحدودها الجيوسياسية والتصدي لأعدائها، الخارجين عن طاعتها والرافضين لسلطتها المركزية[3]. وتم العمل على إحداث آليات جديدة بغية تحسين معاملة الأفراد داخل المجتمع، وبالأخص الذين لا يدينون بالإسلام[4]، وعملت على الحد من تجاوزات الانكشاريين[5]، الذين تحولوا من رجال للنصرة والولاء، إلى رجال للتخريب والعبث بمصالح المجتمع خصوصا ببلاد الشام.

كان للتحولات السياسية والاقتصادية التي شهدتها أوربا خلال المرحلة المدروسة أبلغ الأثر على دمشق، حيث ازدادت أهميتها الاستراتيجية وأضحت تتحكم في شبكة التجارة، نظرا لما تحتله من مكانة اقتصادية متميزة محليا وإقليميا وعالميا، ذلك أنها توجد في مفترق مسالك الصحراء وآسيا الصغرى وأوربا وشمال إفريقيا، وهو ما زاد من تعزيز روابطها السياسية والثقافية والدينية، خصوصا أنها كانت أهم مركز يتجمع فيه السكان سنويا استعدادا للتوجه إلى مكة لأداء فريضة الحج، وهو ما دفع العثمانيين إلى اتخاذها عاصمة لإحدى ولاياتهم مع مطلع القرن 18م، وعندئذ أضحت دمشق تحظى بأهمية سياسية مفضلة من طرف الإمبراطورية العثمانية[6].

ومن ثم اعتاد الساسة العثمانيون على تعيين أمراء من ذوي أصول دمشقية يعهد إليهم تنظيم الحج منذ سنة 1118هـ/ 1707م، وكانوا يحرصون على أن يكون حاضرا مع الحجاج إما أمير الجردة أو والي صيدا أو والي طرابلس من أجل تعزيز التعاضد والدعم بينهم، بمعنى توفير الظروف السياسية الملائمة[7].

كما عرفت بلاد دمشق من الناحية السياسية أحداثا تاريخية متباينة، منذ أن تولى حمزة باشا أمر هذا القطر سنة 1099هـ/ 1688م، حيث وضع لنفسه خطة صارمة إزاء رعيته، ولم يجد هذا الأخير سبيلا غير الوشاية بالولاة والأمراء إلى سلطان الدولة العلية العثمانية نظرا لتعنتهم أمام أوامره[8]، وبحلول سنة 1100هـ 1689م انتقلت زمام الأمور إلى أحمد باشا الذي لم تدم مدة حكمه أكثر من ثمانية أيام حتى تم عزله، وتولى الأمر بعده والي جديد يدعى مصطفى باشا "السلحدار" العادل الكامل سنة 1101 هـ/1689م.... ، وفي سنة 1103هـ 1691م انتقل حكم دمشق إلى ابراهيم بيك أخ مصطفى باشا الفراري[9].

وفي سنة 1107هـ/ 1696م أصبحت دمشق تحت إمرة عثمان باشا السلحدار الذي أوخذ عنه أنه زاد من تأزيم أوضاع البلاد أكثر مما كانت عليه، فثار عليه بعض العلماء وشيوخ الطرق الصوفية وغيرهم، ونعتوا جراء قيامهم هذا بنعوت عديدة من قبيل: فرق الملاحدة الجديدة والفرق الضالة عن الطريق القويم.... وجراء ذلك أرسل إليهم عثمان باشا يهددهم ويشتكيهم للدولة العلية العثمانية، فأمر السلطان بنفيهم إلى طرابلس، ولم يتمكنوا من الحصول على العفو السلطاني إلا بعد مدة من الزمن.

وبحلول سنة 1135هـ/ 1723م حكم دمشق إسماعيل أفندي، وفي عهده وقعت أحداث كبرى، وكان الظلم على أشده، وصارت جل بلاد الشام مستلبة على مستوى الفكر والحكم، وحدثت فتنة عظيمة بين الانكشارية وأوجاق القبقول[10]، وبذلك أقفلت أبواب دمشق لمدة ثلاث أيام كما عبر عن ذلك صاحب الخطط[11] ، وجراء هذه الأحداث الأليمة ظهرت أسرة آل العظم الذين قال في حقهم الخوري ميخائيل بريك: "هم أولاد العرب وصلوا إلى حكم بلاد الشام منذ سنة 1132هـ/ 1720، وذلك لاعتمادهم نهج اللين والتسامح في قضائهم وحكمهم"[12]، وأصبحوا بذلك حكاما للشام [13].

وعموما، يظهر أن جل الولاة الذين حكموا إيالة دمشق خلال المرحلة المدروسة كانوا لا يكملون السنة، ومنهم من لم تدم مدة حكمه سوى أيام معدودة. وظهر بالملموس، أن الأوضاع الاجتماعية كانت تتأثر بشكل مباشر بالأوضاع السياسية، وبعد تراجع النظام الإقطاعي العثماني في القرن السابع عشر، ترسخت القوى الإقطاعية المحلية، بعدما أصبحت الحكومة المركزية عاجزة إلى حد ما عن كبح النفوذ السياسي المحلي الذي تمتعت به القوات شبه العسكرية، وخاصة العناصر المحلية، مما اضطرها للاعتماد عليهم في أعمال الأمن، وتأمين قوافل الحجاج وحمايتهم[14].

تظهر بعض الدراسات أن الحالة الفكرية والثقافية لبلاد الشام عموما والقطر الدمشقي خصوصا الذي هو مجال مساهمتنا كان متشابكا، ومليئا بالمعتقدات والخرافات الممزوجة بما هو إيديولوجي، والتي تقترب إن صح التعبير من الاعتقادات الأسطورية، وما زاد الطين بلة هو بروز طوائف وفرق جديدة، لها مناهج خاصة في الحياة التعبدية والخلوات[15].

وقد عرف القطر الشامي الدمشقي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر عدة اضطرابات إدارية واجتماعية وفكرية، وصلت في بعض الحالات إلى حد التصفية الجسدية سواء كان ذلك بسبب فكر تجديدي أو ظهور طرق جديدة. وبالتالي طغت بالمنطقة الخلافات الإيديولوجية والثقافية، والانتصار لفريق على حساب آخر بدون وجه حق. ويستفاد من أحد الدارسين أن الأوضاع بالمجال المدروس كانت مائجة في بحر من الدماء، جراء الفورات الداخلية، ولعل أهم العوامل المسببة لهذا الحراك والغليان الاجتماعي، تكمن في سوء معاملة الحكام لعامة الناس؛ لأن شغلهم الشاغل كان هو الانفراد بالسياسة والاهتمام بالكراسي والحكم[16].

وفي هذا الصدد ذهب باحث آخر للمنطقة إلى أنه في كثير من الأحيان، أضحت المدن السورية مسرحا بارزا للثورات والتطرف، حيث كانت توقد النار غير ما مرة بدمشق وحلب وغيرهما، ولا تهدأ فتنهم وثوراتهم إلا بعد تدخل الولاة الذين هم من كبار الأعيان. ويلاحظ أن الهدوء عندهم كان لا يدوم إلا فترة وجيزة حتى تعود الفوضى على نحو ما كانت عليه من ذي قبل[17].

وزكت المستشرقة نسكايا هذا الطرح حيث قامت بدورها بدراسة المنطقة، ونقلت عن البديري في إحدى رواياته: أنه في **"سنة 1743م أغلقت أهل الشام دكاكينها، وقامت الأشراف على بيت فتحي أفندي الدفتردار، وفي سنة 1746م بينما الناس قبل الظهر في أشغالهم وإذا بضجة عظيمة وضرب بارود فقيل ما الخبر، قال ملكت الدالاتية القلعة، فسكرت البلد وزاد الفزع في كل أحد، ولما بلغ الخبر الانكشارية قاموا على قدم و ساق، وبعد أن سحقت معارضة الانكشارية في الميدان على يد الوالي أسعد باشا، ساءت أحوال أهل الشام وأصبح الناس ساهرين ليلا ونهارا، وكان**

الشعب في اضطراب وحزن، وفي حالة الهلع كان الناس يهربون تاركين حوانيتهم وبعد استتباب الأمن في المدينة تلقى أسعد باشا بشارة من الباب العالي فأمر بإطلاق المدفعية احتفالا، وظن أهل دمشق أن اشتباكات اندلعت بين الجنود فأقفلت المدينة، وأمر الباشا من جديد بإقامة احتفال بالألعاب النارية، فهدأ روع الناس وفتحوا حوانيتهم"[18].

وهذا يظهر بشكل جلي، فشل المسئولين في الإصلاحات التي حاولوا بلورتها لتخليص فئات المجتمع من بعض الإكرهات، التي تضاربت على ما بدا لنا مع أصحاب المصالح والنفوذ، فكانت النتيجة أن قابلوها بالرفض، بذريعة أنها مستوحاة من الكفار "الأوربيين"[19]، وأضحى من الضروري أن يقف الفكر العربي على هذه المأساة التي يعيشها، ويتخذ موقفا واضحا من ذلك، يؤدي إلى الدفاع عن الحياة الاجتماعية أمام الموجات الاستعمارية الكاسحة للفكر والأرض، مع الحرص على ثقافة وهوية المجتمع في مفهومه التقليدي كي لا ينفجر[20].

ويعتبر النصف الأول من القرن18 فترة مهمة طبعتها بعض الإصلاحات، حيث تمت تولية ولاة أكفاء وُفِّقوا في إعادة هيكلة التنظيم الإداري[21]، ومع ذلك ظلت هذه المحاولات ناقصة، بدليل أن بعض الولايات ما زالت تعتمد نظام الغلبة للأقوى، وفي هذا الصدد بين محمد كرو أن ما كان طاغيا هو سوء التسيير الإداري، والخراب وهتك أعراض الناس وتقتيلهم، كما أن الولاة نسق واحد؛ لأنهم نسخة عصرهم إذ كان الناس كلما اشتد عليهم الظلم في مكان ما يهجرونه، إلى موطن آخر يتغيون فيه أقل مغرمة ومظلمة، وإذا كان الولاة في الماضي يرهقون المجتمع أو الرعية باسم تشييد العمران، فإن هذه المرحلة أقل ما يمكن أن يقال عنها هو تخريب الموجود[22].

إن المرحلة الممتدة من أوسط القرن 17حتى أواسط القرن 18 تقدم صورة واضحة عن واقع حال حقبة تاريخية مهمة من تاريخ الإنسانية، ففي الوقت الذي كانت فيه أوروبا تتقوى وتزيد تفننا في تقنياتها وحداثتها، كان الشرق العربي يعيش أسوأ الظروف سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، وهذا ما نستشفه من خلال بعض الدراسات التي أرخت للنسق الاجتماعي في آسيا الصغرى، وحري بنا القول أن القطر الدمشقي تأثر تأثيرا مباشرا بما كان يحدث في الدولة المركزية.

2. نظام الإيالات العثمانية:

إن نظام الولايات العثمانية كان يستند بالأساس على التكليف من حيث المبدأ، إذ يتم تعيين الوالي أو الباشا في منصبه مع تزويده بأوامر سلطانية، مع دعمه ماديا لإنجاح مخططه، وكان النظام الإداري يتميز بنوع من المرونة والطواعية والغموض أحيانا، وهو ما جعله عرضة للاضطرابات في عدة ولايات، فعلى سبيل المثال: خلال عهدة الولاية لأحمد باشا على إيالة دمشق - والتي لم تدم أكثر من ثمانية أيام سنة 1100هـ/1689م- كانت "المظلمة العظيمة" التي لم يسمع بمثلها من قبل في الإيالات التابعة للسلطنة العثمانية[23].

ومن بين الأنظمة الأخرى التي اتبعها السلاطين العثمانيين في حق الإيالات ببلاد الشام هو العقاب سواء بالسجن أو النفي... نموذج السلطان الغازي أحمد الثاني الذي عاقب أعيان دمشق نظرا لما بدر منهم من سوء معاملة الوالي حمزة باشا سنة 1103هـ/ 1692م[24].

3. بعض ولاة دمشق

بدا لنا من خلال المصادر التي حاولنا سبر أغوارها على أن المنطقة المدروسة كانت تعرف بين الفينة والأخرى نوع من الهدوء، وبذلك فالعثمانيين سمحوا للأسر الدمشقية بممارسة أنشطتهم السياسية والفكرية في حدود، فكان منها من تولى القضاء مثل: خليل أسعد البكري بالقسطنطينية، وهي مرتبة لم يبلغها أي عربي من قبل، وقد كان هذا الأخير فقيها عالما بارعا في أمور السياسة ومنضرا اجتماعيا؛ لذلك نلحظ أنه نفي جراء خوضه في الأمور السياسية[25].

ويمكن القول، أن أسرة البكري كان لها دور بارز في التحرر من العبودية الفكرية والسيكولوجية خلال القرنين 17-18 الميلاديين؛ لأنه غالبا ما كان أهل دمشق يعتمدون على هذه الأسرة فيما يخص الإفتاء. وظهرت في نفس المرحلة أسرة آل العظم المعروفون بأولاد العرب، والتي كان لها باع كبير في حكم بلاد الشام عموما، فمع بدايات القرن الثامن عشر، تولى أحد رجالاتهم وهو إسماعيل باشا العظم الايالة بتعين مباشر من المركز، غير أن بعض المؤرخين يرون غير ذلك فقالوا إن ناصيف باشا كان أول حاكم من أسرة آل العظم على دمشق، وقيل في الرملة سنة 1130هـ/ 1717[26]، وفي سنة 1147هـ 1735م انتقل الحكم إلى أسعد باشا العظم، الذي صارت البلاد في عهده أكثر شوكة بدليل أن جل الأقاليم الشامية أصبحت تحت سيادته[27].

وعموما فآل العظم استفادوا من الثورات التي قادها آل البكري المؤيدين للنزعة المحلية، فيما بعد على مدى عقود من الزمن، بيد أن العثمانيين كانوا على قدر كبير في احترام آل العظم، وكانوا يولونهم تقديرا خاصا، لإسهامهم في الحياة العلمية والدينية والسياسية، وكان منهم القضاة وكبار المفتين[28].

وهذا لا يعني أن آل العظم هي الأسرة الوحيدة التي تولت الحكم بالمجال المدروس زهاء ثلاثة عقود من الزمن، بل إن أسراً أخرى كان لها باع طويل في حكم الإيالة، وفي نشر الفكر والتاريخ والأدب، وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن أسرة المرادي التي استقرت مع بداية النصف الثاني من القرن السابع عشر بدمشق، قد لقيت ترحيبا كبيرا من لدن الجد الأكبر للأسرة البخارية النقشبندية، فمحمد مراد البخاري نشر طريقته النقشبندية[29] في بلاد الشام وغيرها.

4. الإنتاج الفكري لأهل دمشق

يبدو من خلال ما طلعنا عليه من مواد مصدرية أن الإنتاج والفكري وطرق التعبد بالمرحلة المدروسة كان يتأثر بشكل مباشر بالأحداث السياسية الداخلية، وبالأنماط الاجتماعية والدينية المحلية، ونحن نعلم أن هذه المرحلة بالذات عرفت دخول الطباعة إلى حلب، وبعد ذلك انتقلت لدمشق سنة 1118هـ/ 1706، إذ كان لظهورها دور مهم في نماء المجتمع والحفاظ على التراث الثقافي[30].

وكان من النتائج التي تم تحقيقها بظهور الطباعة العربية إصدار قرار من السلطنة العليا يزكي طباعة المؤلفات التركية والعربية وغيرها. وبذلك أضحى الدمشقيون في شخص كتاب علماء العرب، يطالبون باسم الأمة العربية والوحدة العربية من سلطنة آل عثمان سنة 1150هـ/ 1738م، بإنصافهم إسوة بباقي الفئات الاجتماعية جراء ما يعتريهم من ظلم وكبح لحرياتهم. ويظهر أن الإنتاج العلمي بما شمله من آداب وعادات وطرق صوفية، قد عرف مدا وجزرا، تارة كان يعرف الانفراج، وتارة أخرى كان يتعرض للتضييق، فعلى سبيل المثال تطورت بعض الطرق الصوفية كالنقشبندية والخلوتية[31].

يعتبر النصف الأول من القرن السابع عشر بحق فترة انفراج فيما يخص حركة التفكير والتعبير، إذ فتح المجال أمام العلماء والزهاد من الطّلبة للبوح بأفكارهم إلى من هم حولهم، وهذا في حد ذاته نوع من ارتقاء المجتمع نتيجة ما حصل من تغيير في العلاقات الاجتماعية، هذا فضلا عن تضافر جهود مختلف الأجهزة القضائية والوزارية وغيرهما للعمل سويا في الحفاظ على الانضباط الفعال، من أجل إصلاح التنظيم الإداري، وذلك بتعيين ولاة ذوي كفاءات عالية[32]. لكن هذه السياسة الإصلاحية لم تلق نجاحا كبيرا بين كل أفراد المجتمع؛ لأن الإشكال كان أعمق من التنظيم والضبط، فالحاجة كانت ماسة للعمل الشمولي.

وعموما فخير ما يزكي تطور الثقافة والفكر بدمشق خلال المرحلة المدروسة هو الطرح الذي ظهر مع نجم الدين الغزي في إشكاليته حول أسباب تأخر الأمة العربية الإسلامية، في كتابه "حسن التنبيه لما ورد في التشبه"، وأيضا الشيخ عبد الغني النابلسي، إذ ألف ما يزيد عن ثلاثمائة كتاب[33].

كان للتربية والتعليم دور مهم في تطور الثقافة والفكر العربين، فلا يمكننا إغفال الدور الذي لعبته اللغة العربية في تطوير الهوية الثقافية، والحفاظ عليها من موجات التحديث والتغيير[34]، وكان التعليم في هذه الكتاتيب مجانا، وفي حالات نادرة كان الفقيه يأخذ أجرة رمزية من تلامذته، وكانت تعرف ب"الخميسية".

برز إبان الحكم العثماني عدد من الأسر الدمشقية المعروفة كآل الكزبري والنابلسي والمرادي وأبي الشامات وغيرهم ، ممن أسهموا في رفد المكتبات وأغنوها بمختلف العلوم الفكرية التي ألفت في عصرهم أو قبلهم ، وأدرك الأوربيون أهمية الكتب المخطوطة، فأوصوا ممثليهم ورؤساء الحملات الاستكشافية بشراء كل محتويات المكتبات بدمشق وخاصة المخطوطات، ونقلها إلى أوربا، ونجدها اليوم محفوظة بمكتبات مدريد، وبرلين، وسان بطرنسبورغ وغيرها، وهذا يبين بشكل جلي إتمام ما كان في السابق من نهب للتراث الثقافي الإسلامي، وقد احتضن الجامع الأموي بدمشق مدرسة ومكتبة زاهرة بأمهات الكتب وإليها يرجع الفضل في حفظ التراث العربي الإسلامي وصيانته.[35]

5.خاتمة:

صفوة القول، إن إيالة دمشق خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، كان لها دور ملموس في تطور الفكر والثقافية بكل أطيافها في العالم الإسلامي، رغم الدور السلبي للقوى الأوربية التي حاولت تحجيم انتشار الثقافة الإسلامية بالبلدان العربية والحداثة من المشرق إلى المغرب، وهو نفس الدور الذي لعبته السلطنة العثمانية التي عملت على منع تطور الثقافة والفكر الحر بين الفينة والأخرى، حيث حاولت الحفاظ على الجمود الثقافي بمختلف الأقاليم التي كانت تابعة لها، إذ لم يحدث انفراج كبير إلا بمجي القرن الثامن عشر، بعدما ظهرت الإرهاصات الأولى للتيارات النهضوية في العالم

العربي، وبدأت المناداة بتدريس العربية وغيرها، وأصبح النقاش الفكري الحر يستحوذ شيئا فشيئا على العقل. وبرزت بعض الأسر الدمشقية المعروفة كآل النابلسي والمرادي والبكري والعظم وأبي الشامات وغيرهم، ممن حاولوا الإسهام في رفد المكتبات وعملوا جراء ذلك على إغنائها ببعض العلوم العصرية.

6.الهوامش:

[1] - محمد أحمد، الحياة الثقافية في دمشق في العصر العثماني، ضمن **مجلة دمشق** المجلد 27، العدد1- 2، 2011، ص.3.

[2] - Toynbee, **The Ottoman Empires place in world history**, In The Ottoman state and it's place in world history, E.J Brill, Leiden, 1974, p.15.

[3] - مصطفى أحمد عبد الرحيم، **في أصول التاريخ العثماني**، دار الشروق، بيروت، الطبعة الثانية، 1986، صص 106- 108؛ ياغي إسماعيل أحمد، **الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث**، مكتبة العبيكان الرياض ، ط1، 1995، ص .77.

[4] - مؤنس حسين، **أطلس تاريخ الإسلام**، منشورات الزهراء للإعلام العربي، القاهرة الطبعة الأولى، 1987، ص. 361؛ عوض عبد العزيز محمد، **الإدارة العثمانية في ولاية سورية 1864- 1914**، منشورات دار المعارف مصر. الطبعة الأولى، ص.11.

[5] - **الإنكشارية**: تسمى بالعسكر "الجيش" الجديد أنشأها السلطان أروخان، وتقسم إلى كتائب، ويلاحظ أن تساهل الدولة معهم في أخريات عهدها جعلهم يستأثرون بالسلطة، ويسيئوا استعمالها غير مرة، وهذا عرضهم لعقوبات عديدة، وفي هذا الصدد تقول الباحثة نسكايا، "إن الحكومة أقدمت سنة 1741م على حل فيلقهم السلطاني وقضى عليهم السلطان محمود الثاني سنة 1826م، للتوسع أكثر حول هذه الفرقة العسكرية انظر الجزائري محمد بن ميمون، **التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية**، تحقيق محمد عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1972، ص. 36؛ **إيرينا اسميليا نسكايا**، م.س، ص. 225؛ الإسكندري عمر وعمر حسن، **تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر**، مكتبة مدبولي، الطبعة الثانية، سنة 1996، ص. 14؛ الصلابي علي محمد محمد، **الدولة العثمانية، عوامل النهوض وأسباب السقوط**، دار التوزيع والنشر الإسلامية، الطبعة الأولى، 2001، ص. 53؛ بروكلمان كارل، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة نبية أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين بيروت ط 5، 1968، ص. 414؛ عوض عبد العزيز محمد، **الإدارة العثمانية في ولاية سورية 1864- 1914**، تقديم أحمد عزت عبد الكريم، منشورات دار المعارف مصر. الطبعة الأولى، 1969، ص. 13.

[6]- شيلشر ليندا ، **دمشق في القرنين الثامن عشروالتاسع عشر**، م.س، صص. 17- 39.

[7]- عبود الصباغ، **الروض الزاهر في تاريخ ظاهر**، تح عبد الكريم محافظة وعصام مصطفى هزايمة، دار الكندي للنشر والتوزيع، ط1، 1999، ص. 27.

[8]- المنجد صلاح الدين، **ولاة دمشق في العهد العثماني**، تق كرد محمد علي، دمشق 1949، ص. 45؛ **خطط الشام**، ج 2، ص. 270.

[9]- **ولاة دمشق في العهد العثماني**، م. س، صص. 46- 47؛ **خطط الشام**، م. س، ص. 269.

[10] - **القبقول**: هم جند الدولة الذين كان يرسلهم السلطان إلى الولايات، كان تكوينهم من المشاة ومن الانكشارية "اليرلية" أو المحلية، وهم من أبناء الشام وكانوا من الفرسان، وأخلاط شتى من العساكر والمرتزقة ممن استخدمهم ولاة دمشق وقت الحاجة كالمغاربة والأكراد وغيرهم. للاستزادة حولهم انظر **الإدارة العثمانية في ولاية سورية** 1864- 1914، م. س، ص. 139. **الحركة الأدبية في دمشق**، م. س، ص. 318.

[11]- **خطط الشام**، م. س، ص، 275.

[12]- قال الخوري ميخائيل بريك: سمي آل العظم بأولاد العرب، وصلوا إلى الحكم بدمشق الشام سنة 1720، معتمدين في كثير من الأحيان نهج التسامح في سلطتهم. للتوسع انظر محمد أحمد، "الحياة الثقافية في دمشق في العصر العثماني"، ضمن **مجلة دمشق** المجلد 27، العدد1- 2، 2011، صص. 308- 309.

[13]- **ولاة دمشق**، م. س، ص ص. 62- 68؛ **خطط الشام**، م. س، ص. 276.- 277

[14]- شيلشر ليندا، **دمشق في القرنين الثامن عشروالتاسع عشر**، م س، ص. 140.

[15] - تعرف الخلوة عند الصوفية بتعاريف متعددة، ولكن كلها تصب في اتجاه واحد هو اعتزال الناس، وترك الاختلاط بهم، والانفراد بالنفس للتقرب إلى الله تعالى. للمزيد انظر كاشاني عبد الرزاق، **معجم اصطلاحات الصوفية**، تح د عبد العالي شاهين، دار المنار للطبع والنشر

والتوزيع، القاهرة، ط1، 1992. ص. 178؛ الشعراني عبد الوهاب، **الجوهر المصون والسر المرقوم فيما تنتجه الخلوة من الأسرار**، تح، شريف مصطفى الحنفي، الناشر دار جوامع الكرم القاهرة، الطبعة الأولى، 2008 .صص. 4- 5.

[16] - الجزائري محمد بن ميمون، **التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية**، تحقيق محمد عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1972، ص .15.

[17] - مشاقة ميخائيل، **تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر**، تحقيق سهيل زكار، الدراسات والترجمة دمشق – حلوبي، 2006، ص. 58.

[18] - ايرينا سميليا نسكايا، **البنى الاقتصادية والاجتماعية في المشرق العربي على مشارف العصر الحديث**، 1989، م. س، صص.229.230.

[19] - محمد فريد بك، **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، تح إحسان حقي، دار النفائس بيروت، الطبعة الأولى، 1981، ص. 319؛ مصطفى أحمد عبد الرحيم، **في أصول التاريخ العثماني**، دار الشروق، بيروت، الطبعة الثانية، 1986، ص. 172.

[20] - لوقا اسكندر، **الحركة الأدبية في دمشق** 1800- 1918، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، طبعة خاصة، 2008، ص. 12.

[21] - أيرام. لابيدس، **تاريخ المجتمعات الإسلامية**، ترجمة فاضل جتكر، الجزء الأول، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، الطبعة الثانية، 2011، صص 472- 480

[22] - **خطط الشام**، ج 2، م س، ص. 265.

[23] - المنجد صلاح الدين، **ولاة دمشق في العهد العثماني**، تق كرد محمد علي، دمشق 1949، ص. 45

[24] - **خطط الشام**، م. س، ص. 270.

[25] - شيلشر ليندا، **دمشق في القرنين الثامن عشروالتاسع عشر**، م س، ص. 189.

[26] - محمد أحمد، **الحياة الثقافية في دمشق في العهد العثماني** ، م. س، ص. 308 ؛ **خطط الشام**، ج2، م. س، صص.275- 276.

[27]- عبود الصباغ، **الروض الزاهر في تاريخ ظاهر**، تح عبد الكريم محافظة وعصام مصطفى هزايمة، دار الكندي للنشر والتوزيع، ط1، 1999، ص. 31؛ كرد محمد علي، **خِطَطُ الشام**، ج1- ج2، الناشر مكتبة النوري، دمشق، الطبعة الثالثة، 1403 هـ 1983، ص.277.

[28] - منال سليم النخال، الشعر في القرن التاسع عشر الميلادي الثالث عشر هجري أغراضه- ظواهره- اتجاهاته- قضاياه، الجامعة الاسلامية غزة الدراسات العليا، إشراف نبيل خالد أبو علي، **أطروحة مرقونة**، نوقشت سنة 2013، ص. 35.

[29]- **الطريقة النقشبندية:** تضاربت آراء الباحثين حول نشأتها وعموما هي طريقة روحية عرفت منطلقاتها من آسيا، ظهرت كثورة صوفية ألغت كثيرا من تقاليد التصوف مثل: الذكر والخلوة والكرامات، وأزاحت بشكل خاص خرافة السلسلة الصوفية، وتعد طريقة النقشبنديين من أكثر الطرق الصوفية انتشارا عبر العالم، إذ لها العديد من الفروع من بينها: المرادية والخالدية والجامعية، كان لها دور مهم في ثورة المسلمين في كل من التركستان الصينية، وتأثر بها الكثير من المشقيين، وبالتالي كانوا يستندون إلى فتوى أهلها للخروج على مضطهديهم في القرنين السابع والثامن عشر للميلاد. للتوسع بشكل أكبر حول هذه الطريقة الصوفية انظر مجموعة مؤلفين، موجز **دائرة المعارف الإسلامية**، مجموعة أجزاء، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ط 1، 1998، ص. 9960؛ عبد العال بديعة محمد، **النقشبندية نشأتها وتطورها لدى الترك**، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط1، 2010، صص. 13- 18؛ درنيقة محمد، **الطريقة النقشبندية وأعلامها**، مطبوعات بروس جرس، طرابلس، ط1، 1987، ص. 55؛ دمشقية عبد الرحمن محمد سعيد، **الطريقة النقشبندية** ، نشر موقع الفرقان، دون تاريخ، ص 9؛

Widad Kadi, **Islamic History and cilivilization**, Studies and Texts , volume 34 ;

[30] - محمد أحمد، **الحياة الثقافية في دمشق في العصر العثماني**، م. س، ص. 303.

[31] - **الطريقة الخلوتية** : تنسب هذه الطريقة الصوفية إلى محمد بن أحمد كريم الدين الخلوتي، أحد أئمة خراسان في القرن العاشر الهجري، كان من اتباع الطريقة السهروردية واستقل بطريقته بعد ذلك، عرفت بذلك انتشارا واسعا بين العلماء، وكان ممن اعتنقها بعض شيوخ الجامع الأزهر، ومعلوم أيضا أن أتباعها ليسوا من المؤمنين بوحدة الوجود فقط بل هم دعاة لها. للاستزادة انظر حول هذه الطريقة الصوفية يرجى العودة للمصادر التالية القصير أحمد بن عبد العزيز، **عقيدة الصوفية وحدة الوجود الخفية**، مكتبة الرشد ناشرون الرياض، ط1، 2003، ص 213؛ القادري محمد بن الطيب، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشروالثاني**، ج 3، تح، محمد حجي وأحمد التوفيق، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مكتبة الطالب، الطبعة الأولى، صص. 139- 140؛ أبي الربيع سليمان، **الروضة المقصودة والحلل الممدودة في مآثر بني سودة**، الجزء، 2-1، تحقيق تيلاني عبد العزيز، مطبوعات أحمد بن سودة الثقافية، الطبعة الأولى، 1994، ص. 384؛ البكري مصطفى بن كمال الدين، **تسلية الأحزان وتصلية الأشجان**، كتاب ناشرون بيروت، دون تاريخ، ص. 5؛ اسماعيل العربي، **معجم الفرق والمذاهب الاسلامية**، منشورات دار الآفاق الجديدة ، مطبعة النجاح الجديدة الدرار البيضاء، ط1، 1993، ص. 265؛ محمود

عبد الرؤوف القاسم، **الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ**، دار الصحابة، بيروت، الطبعة الأولى، 1987، صص 364- 365؛ **المرادي سلك الدرر**، م. س، ص. 191؛

Chih Rachida, **Cheminement et Situation Actuelle Dun Ordre Mystique Réformateur : La Khalwatiyya en égypte (fin XV siécle à nos jours**), in **Studia Islamica**, LXXXVIII, Maisonneuve - Larose, Paris, 1998, PP. 181-187

[32]- **تاريخ المجتمعات الإسلامية**، م. س، صص. 479- 480.

[33] - **الحياة الثقافية لدمشق في العصر العثماني**، م. س، ص. 308.

[34]- النعيمي الدمشقي عبد القادر بن محمد، **الدارس في تاريخ المدارس**، ج1، مطابع دار الكتب العلمية لبنان- بيروت، الطبعة الأولى، سنة 1990، ،ص. 7. وتسمى في المناطق الشمالية للمغرب ب"التحريرة"، وتكون غالبا في اليوم الذي يسبق السوق الأسبوعي بالمنطقة

[35] - **الحياة الثقافية في دمشق في العصر العثماني**، م. س، ص. 325.